

استقرار آل خليفة في الزبارة

الأستاذ الدكتور صبري فالح الحمدي

المقدمة :

تقع الزبارة التي تعد اكبر مدن قطر على الشاطئ الغربي من شبه جزيرة قطر مقابلة لجزيرة البحرين وتجارها الكبرى اللؤلؤ^(١) وقد سكنها الشيخ احمد ابن رزق الذي اشتهر بكونه من كبار التجار حينذاك فاسهم في اعمار الزبارة ، وينقل لنا المؤرخ النبھاني وصفا للمدينة، اذ يقول : " والزبارة اول موضع على ساحل البحر مقابلة لجزيرة البحرين من جهة الجنوب واول من نزلها وعمرها الشيخ احمد بن رزق ورغب الناس في سكنها بكرمه وابدال جوده وبالعدل بين نزلائه فأنتها العرب من كل فج فأسدل عليهم رداء احسانه حتى تحولوا وصاروا يتجرون في اللؤلؤ^(٢)، ومما ساعد على تقدمها ما يستحصله (آل مسلم) حكام الزبارة من الاموال المتأتية من الخراج التي تدفعها القبائل الساكنة هناك ، وهجرة الكثير من تجار وسكان البصرة اليها لاستئناف التجارة التي اعترض سبيلها هجوم الفرس^(٣) ، فضلا عن تمتعها بمكانة تجارية وزراعية كبيرة وموقعها الجغرافي على الخليج العربي الذي يفصل البحرين والاحساء ، ومينائها الأمين الذي يحمي السفن من عواصف البحر وطوفانه ، مما جعل الزبارة تنجح في جذب اعداد كبيرة من تجار البحرين اليها^(٤).

استقرار آل خليفة في الزبارة :

تعددت اسباب هجرة آل خليفة من الكويت الى الزبارة والتي تمت في الغالب حوالي عام ١٧٦٢ بعد ان ظل حلف العتوب قائماً قرابة الخمسين عاماً بين آل خليفة وآل الصباح والجلالمة ، فأرجعها بعضهم الى ازدياد الثروة التي نتجت عن الانتعاش الاقتصادي الذي شهدته الكويت بالحقبة المذكورة وهو ما جعل آل خليفة الذين يعملون بالتجارة يقررون الانفصال من ذلك التحالف ، اذ قد يكون بأماكنهم التمتع بثرواتهم وزيادتها بأنفسهم ، لذلك اخذ الشيخ خليفة بن محمد وهو زعيم آل خليفة على عاتقه بتنفيذ هذه المهمة وقرر الهجرة وقبيلته الى الزبارة مع من يرغب بالألتحاق بهم بعد ان لاقى تأييداً من افراد اسرته^(٥) . اما الرواية التي تناقلها كبار آل خليفة فتذكر ان اهم الاسباب التي دفعت هؤلاء على الانتقال من الكويت فتمثلت في ان ابناء الشيخ محمد بن خليفة ذهبوا الى الدورق (الفلاحية) لجلب التمر للكويت ، فهاجمهم وهم في وسط النهر بعض قطاع الطرق من بني كعب فقتلوا واحداً من المهاجمين وفر الآخرون ، فأنت كعب الى الشيخ عبد الله بن صباح شيخ الكويت تطالب بدم قتيلاها ، فطلب الشيخ عبد الله من الشيخ محمد بن خليفة -الذي ترأس القبيلة بعد وفاة الشيخ خليفة بن محمد في الكويت - ان يسلم له ابناءه ليمشي بهم على كعب في الصلح ، فأبى الاخير ذلك وقال : ((ان بني كعب اعتدت على ابنائنا الذين دافعوا عن انفسهم فقتلوا واحداً منهم فاذا هم يريدون الدية فأنا مستعد ان ادفع لهم بدل الدية ديات فاشتد الخلاف بينهما ، مما ادى ان يهاجر الشيخ محمد بن خليفة من الكويت وابناءه))^(١) ، وعلى العموم فان عوامل كثيرة تضافرت مع بعضها فأدت الى هجرة آل خليفة ومن تبعهم الى الزبارة في منتصف عقد الستينيات من القرن الثامن عشر .

سلك آل خليفة وهم في طريقهم الى قطر كما هو مرجح طريق البحر لمعرفةهم به منذ ان كانوا يشاركون في عمليات الغوص على اللؤلؤ بارسال سفنهم الى شواطئ الخليج العربي القريبة من البحرين وقطر ، كما تكونت لهم خبرة في الملاحة التجارية وذلك بحكم مزاولتهم لهذه الحرفة مع مدن وموانئ المنطقة ، وعلى هذا النحو واصل آل خليفة مسيرتهم عبر سواحل الخليج العربي ، وهناك اشارات الى توقفهم في البحرين التي كانوا ينوون الإقامة بها ، غير ان حكامها من آل مذکور لم يسمحوا لهم بذلك فغادروها الى قطر واستقروا في منطقة الزبارة المواجهة لجزر البحرين ، والتي اخذوا منها يزاولون نشاطهم البحري ويمارسون

عمليات التبادل التجاري مع المناطق المجاورة ، وكان آل خليفة قد خبروا هذه المدينة لكثرة ترددهم عليها لمتاجرة اللؤلؤ في مواسم الغوص لسوقها الرائجة ، فكان الشيخ محمد آل خليفة يأتيها زائراً لشراء اللؤلؤ من اسواقها وقد احبه الناس لورعه وكرمه وحسن معاملته ورجعوا اليه ان يقيم بينهم ويتولى شؤونهم ، لذلك فأن قرار آل خليفة بالاستقرار في الزبارة لم يتخذ اعتباطاً فقد كان آل خليفة يعرفون هذه المنطقة بما فيها قطر الغنية بمصائد اللؤلؤ ، والتي سبق وان زاروها قبل اقامتهم في الكويت وذلك بحكم ما كان لهم من خبرة ونشاط تجاري فيما بين البحرين وقطر والاحساء عبر الطريقين البحري والبري^(٧) ، ومما يعزز ذلك ما اورده الوثائق الهولندية في تلك الحقبة بالاشارة الى قوتهم البحرية وامتلاكهم أعدادا من سفن صيد اللؤلؤ ، فضلاً عن احتفاظهم بعلاقات طيبة مع العثمانيين والقوى الاوربية في شمال منطقة الخليج العربي .^(٨)

ونظراً لما يمتلكه الشيخ خليفة بن محمد الذي تولى الامارة بعد وفاة والده الشيخ محمد بن خليفة من مواهب سياسية وتجارية ، فقد اتخذ عدة اجراءات بعد نزوله الزبارة عام ١٧٦٦ استهدف بها تقوية نفوذه وتوطيد صلاته مع القوى القبلية فتمكن من خلال علاقاته الطيبة مع رؤساء القبائل العربية ومع اتباعه من جلب الجزء المتبقي من قبيلته الى الزبارة^(٩) ، وبعد ان نزل الشيخ خليفة الزبارة عند قبيلة آل بنعلي وتزوج منهم ، وبعد مصاهرته لتلك القبيلة قويت صلاته ونفوذه لدى القبائل الاخرى وعزز ذلك سيرته الحسنة بين الناس ، وفي الزبارة شيد لنفسه بيتاً محصناً يعرف بقلعة مريير ، وفي البداية اعترف بسلطة آل مسلم باعتبارهم نواباً لبني خالد في قطر وكان يدفع لهم الخراج كأية قبيلة اخرى تقطن في شبه جزيرة قطر ، ولكن بعد ان نمت ثروة آل خليفة وازداد نفوذهم امتنعوا عن دفع الخراج وتحصن الشيخ خليفة بالقلعة التي بناها ، والتي كانت اساساً لنفوذ آل خليفة في الزبارة كما انها اتخذت نقطة وثوب على البحرين .^(١٠)

ساعدت عوامل اخرى في ازدهار الزبارة فعلى الصعيد السياسي ادى هجوم الفرس في عهد كريم خان الزندي على البصرة ومحاصرتها حوالي سنة ونصف (١٧٧٦-١٧٧٥) الى هجرة العديد من تجار الاخيرة الى الزبارة ، اضافة الى تركيز جزء كبير من تجارة اللؤلؤ وتجارة الهند فيها خلال السنوات المذكورة^(١١) ، خاصة وان البصرة حينذاك كانت مركزاً تجارياً وفيها حركة اقتصادية نشيطة ، كما ان الرفاه الاقتصادي ادى الى التقدم في العلوم والعمران فيها فلما

انتقل بعض التجار بخبرتهم واموالهم الى الزبارة انتعشت المدينة، ثم ان تحول طائفة من فحول العلماء والادباء والشعراء اليها ساعد على التقدم العلمي ، فضلاً عن ضعف بني خالد بسبب الخلافات الاسرية بين آل عريعر حكام الاحساء الى جانب ظهور الحركة السلفية في نجد ، وكلها امور شكلت عوامل ضغط دفعت ببعض سكان الاحساء ونجد الى الرحيل عنها وسكن الزبارة والكويت. (١٢)

وعلى الجانب الاقتصادي ساعد نزول آل خليفة ومن والا هم للزبارة على نمو الثروة لسكانهم بالقرب من المصدر الاساسي لثروة الخليج العربي وهو اللؤلؤ وتمتعت الزبارة بنوع من حرية التجارة فأن عدم فرض ضرائب على السلع التجارية فيها شجع التجار على الدخول اليها بتجاريتهم، فاصبحت وقتئذ منطقة جذب اذ ترد اليها البضائع للاستهلاك ثم يصدر الفائض منها الى نجد والاحساء وغيرها ، كما ان ازدهار الزبارة ادى الى جذب كثير من تجارة البحرين التي كانت وقتئذ تحت حكم آل مذكور (١٣) خاصة اذا علمنا ان الزبارة تشتهر حينئذ بتجارة اللؤلؤ فهي قريبة من المصائد الغنية بصيده ، كل ذلك مما هيا للأخيرة ان تتبوأ مكانتها في التجارة والملاحة فدرت عليها الخيرات من كل مكان (١٤) ، فضلاً عن ذلك فقد جاء بالمصادر التاريخية بان آل خليفة كانوا يقرضون المال الى الغواصين في بداية الموسم ، وكان عليهم مقابل ذلك ان لا يبيعوا محصولهم لغيرهم حسب التقاليد المحلية السائدة انذاك وشكل هذا مصدراً لتنمية ثروتهم ، الى جانب ان الزبارة اصبحت سوقاً مركزاً تجارياً ترد اليها البضائع وتوزع على المناطق المجاورة منها. (١٥)

لم يرق للشيخ نصر آل مذكور حاكم بوشهر والبحرين ذلك الازدهار الاقتصادي الذي تمتعت به الزبارة ، مما اثار مخاوف ذلك الشيخ الذي بدى غير راض عما حققه آل خليفة من انجازات في الزبارة ، وبات غزو الاخيرة من اهم الاهداف التي سعى اليها ذلك الحاكم خاصة بعد ان كثرت المناوشات التي وقعت بين بوشهر والمناطق الخاضعة لنفوذ آل خليفة في مياه الخليج العربي (١٦)، وقد لقي الشيخ نصر تشجيعاً من علي مراد خان حاكم اصفهان الذي حرصه على ما يبدو بأن يقوم بمهاجمة الزبارة ومحاصرتها تحقيقاً للأطماع الفارسية المعروفة. وتأسيساً على الحقائق التي اوردناها فقد نبهت المناوشات التي وقعت بين آل خليفة في الزبارة وبين آل مذكور حكام بوشهر والبحرين في مياه الخليج العربي ، آل خليفة الى الخطر الذي صار يحدق بهم من البحرين ، لذلك ما كادت

تتردى اوضاع الاقاليم الفارسية جراء الاضطرابات التي وقعت فيها بعد اغتيال كريم خان الزندي عام ١٧٧٩ حتى انقضوا على البحرين ، وبعد صدام مسلح تمكن آل خليفة من العودة الى قاعدتهم في الزبارة بعد استيلائهم على الكثير من الاسلاب وكان من بينها احدى السفن التابعة لشيخ نصر (17) ، اما المصادر البريطانية فأرجعت اسباب تلك الغزوة الى وقوع حادثة عام ١٧٨٢ ادت الى مقتل احد افراد آل خليفة في سترة الواقعة على الساحل الشرقي للبحرين ، وهو ما دفع حكام الزبارة الى تجهيز حملة عسكرية على المنامة ، واستنجد آل مذكور الذين دب فيهم الفرع بحاكم المنطقة الجنوبية لفارس الذي اوعز بدوره للشيخ نصر بتجهيز حملة لاحتلال الزبارة (18)

رد الشيخ نصر حاكم بوشهر والبحرين وتنفيذاً لأوامر الحاكم الفارسي على الغزوة البحرينية بأعداد حملة قوية ضد آل خليفة في الزبارة مستعيناً بحكام بندريق وجناية وشستان وسواها ، وكان قوام هذه الحملة ألفي رجل وقيل اربعة آلاف بقيادة محمد ابن اخي الشيخ نصر ، واستطاعت القوات المهاجمة محاصرة الزبارة لمدة نحو شهر في اواخر عام ١٧٨٢ ، وقد توسط (ميرغني) من بندريق بين آل مذكور وآل خليفة حقناً للدماء ، ولكن الشيخ نصر قدم شروطاً قاسية للصلح فلم تنجح الوساطة ، فحل محله الشيخ راشد بن الشيخ رحمة القاسمي شيخ رأس الخيمة وحاول تسوية النزاع بين الطرفين بصورة سلمية ولكن محاولاته باءت بالفشل ، وكان الشيخ عبد الله بن خليفة بن محمد آل خليفة يمثل الزبارة في المفاوضات وقد وافق على شروط الصلح ، الا ان الشيخ نصر ومن يمثله رفضوا تلك الشروط وطلب استسلام الزبارة بدون قيد او شرط واشترط له الحق في التحكم برقاب اهلها ، خاصة بعد ان استطاع الشيخ نصر ان يستميل اليه بعض القوى العربية ضد آل خليفة ومن بينها الشيخ راشد زعيم القواسم الذي حول موقفه تجاه آل خليفة واتجه به الى موقف معادي ، فلما لم تجد المفاوضات نفعاً مع الشيخ نصر طلب الشيخ عبد الله بن خليفة منه ان ينزل قواته واخبره بان حصاره للزبارة غير مجد مادامت القوافل وهي تحمل الغذاء تأتي باستمرار من الصحراء الى المدينة كما انه استفز خصمه بقوله انه من العار عليه وهو يمثل دولة العجم ان يبقى محاصراً للزبارة دون ان ينزل للحرب فاجابه شيخ آل مذكور انه يخشى ان يهرب اهل الزبارة عندما تنزل قواته ، ولكن الشيخ عبد الله وعده بالصمود والحرب حتى النصر والشهادة ، فانزل الشيخ نصر قواته بين الزبارة وفريحة في

وقت صلاة الجمعة ، وقد اتخذ هذا الوقت لأنشغال الناس بأداء الصلاة فيفاجئهم وهم في المساجد دون ان يعلم ان اجتماعهم هذا ادى الى قوتهم ، كما ان المصلين في فريحة توجهوا بسيوفهم لنجدة اخوانهم بالزبارة وكانت امراة قد انتدبتهم واستنجدت بهم ضد قوات بوشهر، وحدثت المعركة بين الجانبين يوم الجمعة في شهر كانون الاول عام ١٧٨٢ ، اذ فوجئت القوات الغازية بهجوم قوي شن ضدها وفور نزولها وبعد قتال عنيف اجبرت قوات بوشهر على الانسحاب، وقتل الشيخ محمد ابن اخي الشيخ نصر كما قتل ابن اخي الشيخ راشد وبعض الرجال البارزين من جماعة شيخ هرمز ، فرفع ذلك الانتصار من معنويات آل خليفة ومن معهم من القبائل وشجعهم على ضرورة تخليص البحرين من الاحتلال الاجنبي^(١٩)

الخاتمة

توصلت الدراسة الى استنتاجات ابرزها :

- ١- جذبت الزبارة بحكم موقعها الجغرافي المقابل لجزيرة البحرين القوى القبلية المجاورة ، التي راحت توجه انظارها للاستقرار فيها والافادة من خيراتها، الامر الذي جعلها مركزا لاستقطاب العديد من الجماعات الوافدة الى المدينة، اذ كان ميناءها يستقبل السفن التي تحمل السلع المختلفة،والقادمة من مناطق الخليج العربي الاخرى او من شرق افريقيا وبلاد الشرق لتتبع او تبادل بسلع اخرى في اسواق الزبارة.
- ٢- برز من مجريات البحث ان هناك عوامل كثيرة اسهمت في هجرة آل خليفة الى الزبارة واستقرارهم فيها قبل وصولهم البحرين، تأتي في مقدمتها اشتهار المدينة بمصائد اللؤلؤ وامكانياتها التجارية، فضلا عن هجرة العديد من تجار البصرة الى الزبارة بعد هجوم الفرس في عهد كريم خان الزند على البصرة ومحاصرتها عام ١٧٧٥ ولاكثر من عام، مما جعل جزءا كبيرا من تجارة اللؤلؤ وتجارة الهند تتركز فيها، حتى اصبحت المدينة محطة لاستقبال طائفة من العلماء والادباء والشعراء من مناطق الخليج العربي الاخرى ، نتيجة لاستقرار اوضاعها الداخلية وانتعاش الاحوال الاقتصادية لسكانها.
- ٣- وتأسيسا على ذلك فان استقرار آل خليفة واتباعهم بالزبارة – موضوع الدراسة- لم يكن حدثا عابرا اذا ما اخذنا بنظر الاعتبار ما تمتعت به الاخيرة من دور تجاري ملحوظ اوضحته صفحات الدراسة، وتمتعها بحالة من الهدوء والاستقرار في اوضاعها الداخلية ، الامر الذي جعلها مركزا لاقدم تجار البحرين والاحساء والبصرة الى ربوعها ، فضلا عن الوافدين اليها من مدن قطر الاخرى ، بسبب امتلاكها تلك الثروات الاقتصادية التي اشر اليها البحث بعض جوانبها وحالة الاستقرار التي كانت تتمتع بها.

قائمة المصادر

الكتب العربية :

- د. احمد مصطفى ابو حاكمة ، محاضرات في تاريخ شرقي الجزيرة العربية في العصور الحديثة ، القاهرة ، معهد البحوث والدراسات العربية ١٩٦٧ .
- ب . ج . سلوت ، عرب الخليج في ضوء مصادر شركة الهند الشرقية الهولندية ١٦٠٢ - ١٧٨٤ ، ترجمة عايذة خوري ، ابو ظبي ، ١٩٩٣ .
- د . جمال زكريا قاسم ، الخليج العربي دراسة لتأريخ الامارات العربية في عصر التوسع الاوربي الاول ١٥٠٧-١٨٤٠ ، القاهرة ، ١٩٨٥ .
- عمر رضا كحالة ، جغرافية شبه جزيرة العرب، المطبعة الهاشمية، دمشق ١٣٦٤ هـ / ١٩٤٤ م .
- ينظر: محمد بن خليفة بن حمد النبهاني ، التحفة النبهانية في امارات الجزيرة العربية، ج١، بغداد ، ١٣٣٢ .
- محمود بهجت سنان ، البحرين درة الخليج العربي ، بغداد (د.ت) .
- مصطفى مراد الدباغ ، قطر ماضيها وحاضرها، بيروت، ١٣٨١ هـ / ١٩٦١ م .
- نورية محمد الصالح ، علاقات الكويت السياسية بشرقي الجزيرة العربية والعراق العثماني ١٨٦٦ - ١٩٠٢ الكويت ١٩٧٧ .

الكتب الاجنبية :

- 1- Thomas Hages S.ed; Selections From The Records Bombay Government , Historical and Other Information Commedted With the Province Of Oman , Muscat , Bahrain , and Other Places in the Persain Arabian Gulf (New Serise No. xxiv) Bombay, 1850.

الدوريات العربية :

- عبد الله بن خالد آل خليفة و د.علي ابا حسين ، من تأريخ العتوب في القرن الثامن عشر، مجلة الوثيقة، العدد ٤ السنة ٢ ، مركز الوثائق التاريخية ، البحرين، ربيع الاخر ١٤٠٤ هـ / يناير (كانون الثاني) ١٩٨٤ م .

الهوامش

- ١ - عمر رضا كحالة ، جغرافية شبه جزيرة العرب ، المطبعة الهاشمية ، دمشق ١٣٦٤ هـ / ١٩٤٤ م ، ص ٤٥ .
- ٢ - ينظر : محمد بن خليفة بن حمد النبهاني ، التحفة النبهانية في امارات الجزيرة العربية، ج ١ ، بغداد ، ١٣٣٢ ، ص ٧٣ .
- ٣ - مصطفى مراد الدباغ ، قطر ماضيها وحاضرها ، بيروت ، ١٣٨١ هـ / ١٩٦١ م ، ص ١١٢ .
- ٤ - د. احمد مصطفى ابو حاكمة ، محاضرات في تاريخ شرقي الجزيرة العربية في العصور الحديثة ، القاهرة ، معهد البحوث والدراسات العربية ١٩٦٧ ، ص ٨٤ .
- ٥ - لمزيد من التفاصيل انظر محمود بهجت سنان ، البحرين درة الخليج العربي ، بغداد ، ص ١٢١ .
- ٦ - عبد الله بن خالد آل خليفة و د.علي ابا حسين ، من تاريخ العتوب في القرن الثامن عشر مجلة الوثيقة ، العدد ٤ السنة ٢ ، مركز الوثائق التاريخية ، البحرين، ربيع الاخر ١٤٠٤ هـ / يناير (كانون الثاني) ١٩٨٤ م ، ص ١٧ .
- ٧ - نورية محمد الصالح ، علاقات الكويت السياسية بشرقي الجزيرة العربية والعراق العثماني ١٨٦٦ - ١٩٠٢ الكويت ١٩٧٧ ص ٤٨ ، محمود بهجت سنان ، البحرين درة الخليج العربي ، بغداد (دت) ص ص ١٢٠ - ١٢١ .
- ٨ - ب . ج . سلوت ، عرب الخليج في ضوء مصادر شركة الهند الشرقية الهولندية ١٦٠٢ - ١٧٨٤ ، ترجمة عابدة خوري ، ابو ظبي ، ١٩٩٣ ، ص ٣٤ .
- 9- Thomas Hages S.ed;Selections From The Records Bombay Government , Historical and Other Information Commedted With the Province Of Oman , Muscat , Bahrain , and Other Places in the Persain Arabian Gulf (New Serise No. xxiv) Bombay , 1850, P.363 .
- ١٠- د . جمال زكريا قاسم ، الخليج العربي دراسة لتأريخ الامارات العربية في عصر التوسع الاوربي الاول ١٥٠٧-١٨٤٠ ، القاهرة ، ١٩٨٥ ، ص ١٧٢ .

11 - Haghes ; Op. Cit , P . 363 .

- ١٢- انظر آل خليفة ، المصدر السابق ، ص ١٩ .
- ١٣- آل مذكور : وهم من عرب المطاريش يرجعون في اصولهم الى قبيلة صعيب العمانية ، وعاصر وصولهم الى حكم البحرين هجرة آل خليفة الى الزبارة عام ١٧٦٦ .
- ١٤- آل خليفة ، المصدر السابق ، ص ٢٠ .
- ١٥- سنان ، البحرين ، ص ١٢٢ .
- 16 – Nyrop . Richard ; Area Hand Book For the Gulf states , Washington ,January 3 , 1977 , p. 26 .
- ١٧- قاسم ، المصدر السابق ، ص ٤١٩ .
- ١٨- جون ب . كيلي ، بريطانيا والخليج ١٧٩٥ - ١٨٧٠ ، ج ١ ، ترجمة محمد امين عبد الله ، وزارة التراث القومي والثقافة ، سلطنة عمان ، ص ٤٨ .
- ١٩- انظر آل خليفة ، المصدر السابق ، ص ص ٢٢-٢٣ ، قاسم ، المصدر السابق ، ص ٤١٩ .